« فلسطينيات » :

الضـــحية ...

للأستاذ نجاتي صدقي

رأيت مرة صديقاً يسير كئيبا حزينا ، فسألته الخبر ، فلم يجب بأكثر من كلمة .

— « وقعت » ... واختفى ...

فلم أفقه ما هية النكبة التي حلت به ، وعزوت ذلك لدين لم يتمكن من سداده ، أو خلاف وقع له مع زوجته ، أو لمشكلة طرأت له في وظيفته ...

ثم غاب عن ناظري أسبوعين كاملين ، إلى أن رأيته يوما يجلس في مقهى من مقاهي « يافا » وأمارات البشر والحبور تبدو على قسمات وجهه .

— قلت له : لا بد أن يكون قد حدث لك حادث ، تحاول إخفاءه عني ، رأيتك مرة تسير كئيبا ثم اختفيت أسبوعين ثم ظهرت ثانيا مسرورا ، فما هي قصتك ؟ .

قال : أفقت مرة من نومي وأنا أحس بألم لا يطاق في ذراعي اليمنى ، وكانت أعصاب يدي متوترة ، وكنت أجد صعوبة شديدة في قبض أصابعي ، فحاولت أن أنزع لباس النوم ، فلم أستطع ، وأمسكت فنجان القهوة فسقط على الأرض ... ثم أردت أن أكتب شيئاً فلم تطعني أناملي ، ثم جاءني ولدي وطلب مني أن أبري له قلمه ، فلم يفعل السكين في القلم ... فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم وهرعت إلى الطبيب .

فلما رويت له ما حدث لي ، اهتم بالأمر وقال :

— المسألة في غاية التعقيد ... وأود قبل فحص جسمك أن أخصك بالأسئلة التي ستنير لي سر مرضك ...

فسألني عن اسمي ، وعن اسم أبي وأمي ، وأين قضيت أيام طفولتي ، وأين نشأت وترعرعت ، وأي المدن سكنت ، وهل سبق أن أصبت بأمراض ، وما هي أنواعها ... وهل أعرف شيئاً عن أمراض بارزة في عائلتنا ... وهل قمت بأعمال جسدية يوما ما ، ثم ما هي طبيعة عملي الآن ، وهل أكثر من الكتابة أو المطالعة ... وهل أميل إلى التفكير العميق أو السطحي ، وأخيراً كيف أقضي ساعات الفراغ ، أأقضيها في الداعبات ... أم في التأملات ...

ثم فحص جسمي ، فجس نبضي وحملق في عيني ، وأنعم النظر في حلقي ، وقاس كتفي ، واستمع إلى رئتي ، ونقر على ظهري وبطني ، وسألني أن اتأوه ... ثم طرق ركبتي بعصا طرقاً خفيفاً فردتا عليه بحركات عنيفة ... ثم قال :

— كفى الآن ... اجلس .

فجلست أجمع ثيابي ، وجلس وهو يضع تقريره الطبي ، وبعد دقائق قال لي :

اسمع يا بني ... أنت مصاب بمرض عصبي عضال لم أر له مثيلا في حياتي . وأصارحك القول بأنني لن أنصحك باستعمال أي دواء قبل تصوير ذراعك بأشعة رنتجن .

— قلت ولكن كيف تشخص هذا المرض على وجه التقريب ؟

— قال يغلب على ظني أنه « أوستيو ميليتوس » يتصل إما « بالبرا مليجيوس » أو « بالهيمليجيوس » ! ...

الإسلام ، ويقدم لنا الدلائل لليقين على أن كل نجمة تتلألأ فوق رؤوسنا في القبة الزرقاء حين يرخي الليل رواقه ويسبل ستره عالم معمور مثل عالمنا .

إن للدراية والخبرة عند الإسلام مصدرين : العلم والإلهام . فالأول يعبر عن جد الإنسان لمعرفة طرق الحق المستقيمة . والثاني يمثل نعمة الله بكشف سبله السوية للانسان . فالفرق بين المصدرين فيما أرى مثل الفرق بين التجربة والوجدان ، أو بين الأفكار المكتسبة والأفكار الغريزية . وهو ما يعتبره فلاسفة العصر الحاضر أيضاً مثل سبنسر وبرجسون أنه فرق في الكم لا في النوع . والله يلهم كل فرد في كل لحظة من حياته ؛ بيد أنه يتوقف على الأكثر على الروحانية أو المقدرة الروحانية الناشئة عن مدى معرفته لله ولسبله السوية ، وتلك المقدرة يرث الإنسان شيئاً منها عن آبائه وأجداده يكسب شيئاً آخر بالإيمان والإخلاص وبالأعمال الصالحة والسير الحسن .

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهاشمي

ثم أخذ لى صورة بأشعة رنتجن ... وسألنى أن أعود إليه فى اليوم التالى ... فخرجت من لدن الطبيب وقد أظلمت الدنيا فى عينى ، فكان الناس يعبرون بى وكأنهم أطياف . ومرت بالقرب منى سيارة مسرعة ، فمن لى أن أحتك بها ! ... ثم اجتزت هضبة تطل على البحر ، فرأيت أمواجه تقهقه وتتحدانى ! ... لكننى تغلبت على مظاهر الضعف ، ولم أقنط من رحمة الله .

ولما عدت إلى الطبيب مرة أخرى ، أظهر لى الصورة ، وراح يشرح لى تفاصيلها بالقرب من النافذة ... فقال :

انظر ... هذه جمجمتك ... وهذه أسنانك ... باستثناء المخلوع منها طبعاً ... وهذه رقبتك ... أنظر كيف يميل عمودك الفقرى إلى اليمين قليلا ... أما هذه الريشة فوقفها غير طبيعى ، وأظن أنها هى التى تضغط على مجموعة أعصاب كتفك الأيمن وتسبب لك الآلام ... وعلى كل فهذا رأيى الخاص ... ولما كان الطبيب عادة لا يرتاح إلى رأى واحد فى القضايا الطبية المعقدة ، فأننى سأرسلك الآن إلى طبيب إخصائى فى الأعصاب ، ثم تجرى لك مشاورة طبية فوق العادة ...

وتركت عيادته وأنا فى حالة يرثى لها ، وأسرعت إلى الأخصائى فى أمراض الأعصاب الذى أرشدنى إليه الطبيب ، واسمه الدكتور رودلف روبنشتاين ، خريج معهد فينا الطبى فجلست إليه وكان يسألنى سؤالا فى الطب وعشرة أسئلة فى السياسة الفلسطينية ! ... ثم بدأ الفحص بعد أن ظهرت أمامه كما خلقنى ربى ، ووخزنى بابرة فى أطراف أصابعى ... ثم مر بالإبرة أيضا على ظهرى ، ثم ربط جهازاً على ذراعى وضغط عليه ثم قال لى :

— تمدد على ظهرك ، وارفع يديك إلى العلاء ، فابسط أصابعك ... ثم أمسك بيدى وقال :

— دعنا نتجاذب بشدة ...

ثم أخذ يطرق جسمى بمطرقة خشبية صغيرة ، وكان ذلك خاتمة الفحص .

فقال لى وهو يقبض الجنيهات الخمسة :

أنت تشكو من انحطاط فى مجموعة أعصابك ... وأقترح عليك أن تستريح شهراً كاملا فى « كاليه » فى منطقة البحر الميت .

وعدت إلى البيت ، وأنا أفكر فى هذه المصيبة التى حلت بى ، فكنت أردد أقوال الطبيبين ، وأنعم النظر فى صورة رنتجن ، وأطالع التقارير الطبية ، وأحاول إدراك كنه محتوياتها اللاتينية مستعينا بالقاموس الطبى ... إلى أن أضحيت أسير هواجس ، فانكمشت على نفسى واعتزلت الناس ، وعوات على ألا أعود إلى طبيبى الأول ، وألا أسافر إلى « كاليه » ... وفى إحدى الأمسيات خاطبت نفسى قائلا — لم لا تجرب حظك فى الدواء البلدى ؟ ... فنهضت للتو وقصدت جارتنا (أم حسين) وهى عجوز معروفة بوصفاتها البلدية وعرضت عليها ذراعى فامسكت به وتفحصته وقالت : أنت تشكو من قرصة هواء ! ...

قلت : وكيف ذلك ؟

قالت : لا تبحث فيما لا يعنيك ... وعليك أن تعمل حسب ما أوصيك به — خذ خمسة جرامات من المسحوق الفارسى ، ومثلها من بذور البطم ، وعشرة جرامات من الزنجبيل ، ومثلها من الهند شعيرية ، ومثلها من روح الزرنيخ ، واسحقها كلها معا ، ثم اطبخها بالزيت ، واصنع منها لزقات ...

قلت ومن أين آتى بهذه العقاقير ؟

قالت — اطمئن فانا أجلبها من البلاد البعيدة بواسطة الحجاج ... ولك أن تثق بخبرتى ومهارتى ... والآن هات جنيهاً على الحساب ...

وبعد أن قضيت أسبوعين وأنا فى هذه الرحلة الشاقة بين الطب والوصفات البلدية ، ذهبت إلى صديق صيدلى ، ورويت له حكايتى فى جميع أدوارها ، فضحك وقال — لا تجزع ... يبدو لى أن مناخ البحر لا يلائمك ، وهذه رطوبة أحدثت فى ذراعك التهاباً ... إليك هذا المجون وادلك به ذراعك دلكا خفيفا ثم لفه بالصوف على ثلاث ليال متواليات ، وعلى الله الشفاء .

قلت — وما ثمنه ؟

فاجاب فى شىء من التردد والخجل معاً :

— « شلن » واحد فقط ! ...

نجاتى صدقى